رحلة في
تهامة وعسير وجبال الحجاز

ترجمة وتحقيق وتعليق د./ أحمد بن عمر الزيلعي

مقدمة المترجم

نشر هذا البحث عام ١٩٤٧م في مجلة عالمية معروفة، هي المجلة الجغرافية التي تصدر عن الجمعية الجغرافية الملكية في لندن. وهي من إعداد الأستاذ وَلْفرد ثَسِيجَر، آخر عظماء الرحالة البريطانيين في البلاد العربية. ولد السيد ثسيجر في أديس أبابا عام ١٩١٠م، وتعلم في ايتون واكسفورد، وعمل، بعد تخرجه،في السودان، والحبشة،وسوريا، ثم في الصحراء الغربية. ومنذ أواخر الحرب العالمية الثانية، استهوته الرحلات والمغامرات، فقام برحلات عديدة إلى أقطار مختلفة، ومنها الجزيرة العربية، حيث قطع الربع الخالي مرتين في الفترة من عام ١٩٤٦ إلى عام ١٩٤٨م. وتسنَّى له في عام ١٩٤٥م وفي العام الذي يليه، القيام برحلة عبر تهامة وعسير، وجبال الحجاز، كانت نتيجتها هذا البحث الذي يقدم اليوم للقارىء العربي. وهو وصف دقيق حقاً للمجتمعات التي زارها، وتسجيل وثائقي للأوضاع المعيشية لأفراد هذه المجتمعات، وكذلك أنظمة حياتهم المختلفة، بما في ذلك عاداتهم وتقاليدهم، ونظام أسواقهم، والسلع التي تباع في هذه الأسواق، ونظم الزراعة والرعي، والحاصلات الزراعية، والحركة التجارية، والطرز المعمارية، ووصف البيئة النباتية والحيوانية والطبيعية، بما في ذلك وصف وتحقيق أسماء الأمكنة، والجبال، والأودية، وغير ذلك مما لا يستغني عنه أي دارس لهذه المنطقة التي لم تلق عناية كبيرة من قبل الدارسين. وفوق هذا، فقد كان هذا الرحالة دقيقاً في وصفه، وأميناً في تصوير المجتمعات التي زارها، وبعيداً إلى حدّ ما عن التعصب، والسخرية والتعالي الذي يتصف به بعض الرحالة الذين سبقوه.

وكان لعمله في بعثة مكافحة الجراد، وحصوله على إذن من جلالة الملك عبدالعزيز، كما يتضح من خاتمة هذا البحث، الأثر الأكبر في إعطاء رحلته طابعاً رسمياً مكّنه من الإتصال بأمراء المناطق التي زارها، وسهل عليه حرية الإنتقال، والحصول على المعلومات التي يريدها. ومع هذا، فقد تجنب وصف موائد الطعام، واستقباله من قبل هؤلاء الأمراء، أو الحديث عن نفسه ومغامراته كما يفعل كثير من الرحالة؛ وركز، بدلاً من ذلك، على نقل المعلومات العلمية

المجردة مما جعل عمله هذا ـ رغم قصره ـ رائداً، ومرجعاً لدارسي المنطقة الجنوبية الغربية من المملكة بمختلف تخصصاتهم.

وقد روعي في منهج الترجمة استخدام بعض المصطلحات المحلية، ومن ثم شرحها في الهوامش حتى يسهل على القراء فهمها، ولاسيما أولئك الذين لا ينتمون إلى البيئة التي يتناولها هذا البحث. كما روعي بقدر الإمكان الحرص على أمانة النقل باستثناء إضافات طفيفة وضعت بين خاصرتين [ ]، وكذلك المحافظة على تعليقات المؤلف التي جاءت في إحدى وعشرين حاشية، حيث تمت ترجمتها وإثباتها ضمن التسلسل العام لحواشي التحقيق والتعليق مع وضع الحرف (م)، وتعني المؤلف، أمام الحاشية الأصلية في النص الإنجليزي، وذلك لتمييزها عن الحواشي الأخرى التي وضعت من قبل المترجم.

ولم يقتصر هذا العمل على الترجمة إلى اللغة العربية فقط، بل تعدى ذلك إلى تحقيق النص، والتعليق على بعض معلوماته، بعد مقارنة هذه المعلومات بتلك التي وردت في المصادر والمراجع الميسورة عن بلاد عسير، والمناطق المجاورة لها. وقد تم تزويد هذا البحث بقائمة شاملة لأسماء هذه المصادر والمراجع حتى يسهل الرجوع إليها عند الحاجة. ومع ذلك فلن يخلو هذا العمل من هفوات أو سقطات يرجي أن يغفرها القارىء الكريم، والله ولي التوفيق..

في سنة ١٩٤٥م، وبعد أن أمضيت شهرين بين أهالي نجد المتمسكين بدينهم في شدة وصرامة، مررت سريعاً عبر تهامة من جدة إلى جيزان. ومنذ ذلك الحين، ظلت تطاردني ذكرى هذا الشعب اللبق البشوش، وبقيت هذه اللمحة الخاطفة حلماً يراودني حتى سنحت لي الفرصة في سنة ١٩٤٦م، عندما اضطررت تحت وطأة حرارة الصيف إلى مغادرة الربع الخالي، والعودة مرة أخرى إلى تلك السلالة المحببة.

وبحكم عملي في وحدة الشرق الأوسط لمكافحة الجراد، قطعت خلال شهور ابريل ومايو ويونيه ٩٥٠ ميلاً، تنقلت أثناءها في تهامة، وعسير، وجبال الحجاز، من القنفدة حتى حدود المملكة العربية السعودية مع اليمن، ثم إياباً من أبها إلى الطائف[١].

بدأت رحلتي من وادي الأَحْسَبة، إلى الشمال من القنفدة[٢]، وكان بصحبتي أحد أخويا الإمارة، وهو شاب من الأشراف، وجمّالان، وأربعة من الجمال المستكراة التي تسير، حسب العرف السائد في تهامة، ورؤوسها مقطورة إلى ذيول بعضها البعض، حيث لا يسمح لهذه الجمال بأن ترعى، بل إن أفواهها تكمم، بصفة مؤقتة، بسلال على هيئة شبكة، ذات فتحات[٣]، يقدَّم من خلالها

بواسطة اليد، غذاء الجمال المكون من قصب الذرة الذي تحمله على هيئة حزمتين كبيرتين توضعان فوق الأحمال من الجانبين. وهي في الغالب لا تحصل على كفايتها من العلف لما في ذلك من الصعوبة وارتفاع التكلفة. وتستطيع جمال تهامة أن تنقل أحمالاً ثقيلة، ولكنها غير قادرة على الحركة فوق الصخور، وسرعان ما يصيبها الحفا عندما تسير على أرضية حجرية. وهي ترد الماء يومياً وأحياناً مرتين في اليوم عندما يكون الجو حاراً. ويسافر هؤلاء الأعراب ليلاً خلال الصيف، وعندما ينامون يتكورون فوق الأحمال وجمالهم تسلك الطريق دونما تردد[٤]. وبالرغم من حرارة الجو، إلا أنني رفضت السفر بعد الظلام لأن عملاً كهذا سيحول دون ملاحظاتي.

وفي طريقنا إلى المُخْوَاة، سلكنا وادي الأحسبة حيث يسكن الأشراف العبادلة في السهل الساحلي من هذا الوادي، ولكنه سرعان ما يدخل الطريق في منطقة صخرية وعرة، لا توجد فيها إلا قرى قليلة، وزراعة حقيرة. وكانت تقع أمامنا بمسافة بعيدة أصْدَار جبال الحجاز[٥]، وبالقرب منا تنتصب قمتان من الجرانيت يصل ارتفاعها ٨٠٠٠ قدم، هما شَدَا اليماني وشَدَا الشامي، وهما أحد المعالم البارزة التي يسهل التعرف عليهما من بعيد[٦]. وينمو شجر البن على هذين الجبلين، بالرغم من أنه لم يستنبت حتى الآن على سلسلة الجبال الرئيسية الواقعة إلى الشمال منهما.

• العشش، نموذج من المساكن في تهامة عسير •

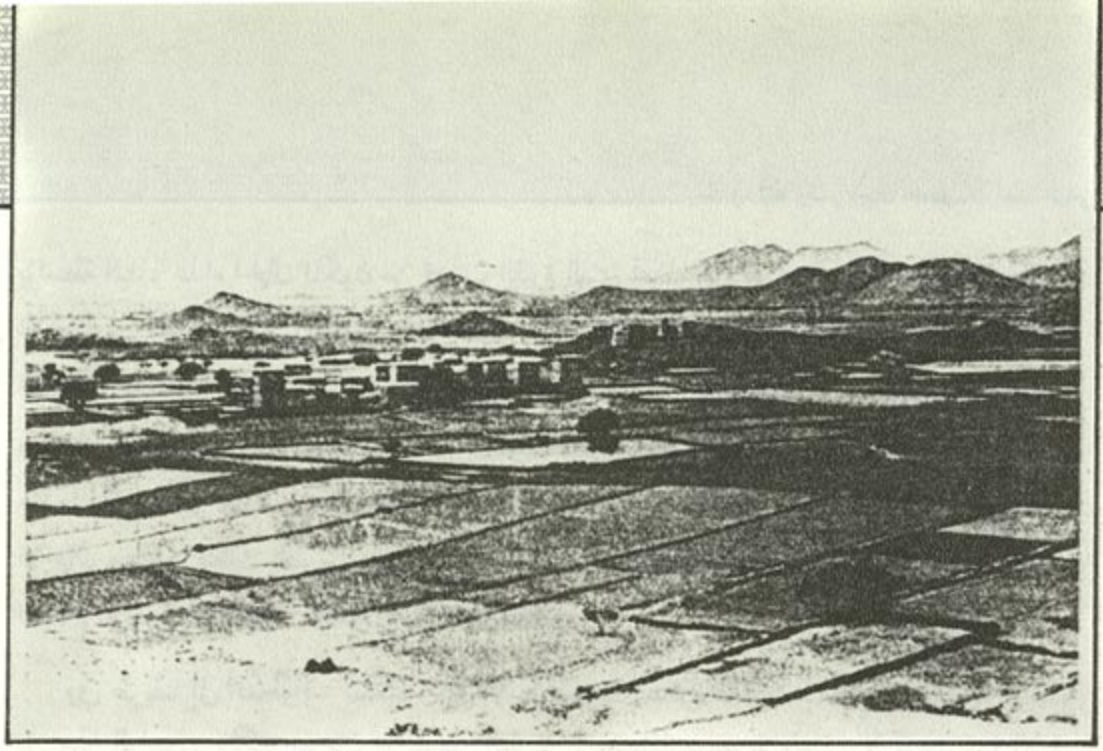

• القرية والزراعة في بلاد قحطان الواقعة على مرتفعات جبال الحجاز •

وتقع المُخْوَاة، بين شدا والأصدار في بقعة من الأودية المتشابكة، والتلال الوعرة المتوجة بأطلال القرى القديمة. وهي قرية بيوتها مبنية من الحجارة، وتتكون من دور واحد، وتقع في بلاد بني عُمَر[٧]، وتتبع مدينة الظَّفِيْر من الناحية الإدارية[٨]. ويعقد فيها سوق الخميس المهم[٩]، حيث تباع فيه الأبقار، والأغنام، والماعز، والحمير، وقليل من الجمال، وتباع فيه أيضاً الحبوب، والبن، والملح، والملابس، والأواني الفخارية، والحصر، والسلال، والحبال، والأرحية، والخضروات، والعسل والنباتات ذات الروائح الذكية. وتهبط إلى هذا السوق جموع غفيرة من قبائل غامد، وزهران الذين يلبسون جَنَابي[١٠] في أوساطهم، ويرتدون ثياباً فضفاضة، شغلت بأشكال مميزة من الخيوط الحمراء طبقاً للعرف السائد في جميع أنحاء الحجاز. وكثير من أفراد هذه القبائل حاسرو الرؤوس، توجت خصلات شعرهم بعصائب من النباتات الذكية الرائحة، بينما يلبس الآخرون صمائد وعقالاً قصبت بخيوط الذهب والفضة.

وعند مغادرتنا المخواة، سرنا عبر تلال جبلية ذات حوائط عمودية شديدة الإنحدار، يبلغ ارتفاعها فوقنا ٣٠٠٠ قدم. وهذه المنطقة تخص فخذاً من قبيلة غامد القوية التي يسكن معظمها في الجبال إلى الشرق من هذا الموقع[١١]، وتتناثر مزارعهم على طول وادي بَطَاط[١٢]، حيث اكتظت ضفتاه بالزراعة التي تروى من الآبار والسيول معاً. ثم اجتزنا وادي قَنُوْنَا إلى الوراء من بطاط، ودخلنا بلاد بَلْعُرْيَان[١٣]. وهي منطقة جرانيتية خصبة، يقوم على حراستها العديد من أبراج المراقبة. ووصلنا في اليوم التالي إلى مركز إمارة ثُرَيْبَان الصغيرة حيث، احتفى بنا أميرها وأكرمنا[١٤]. ثم سافرنا من هنا في برد الصباح، وسط حشد من القرويين المتجهين على الحمير، والجمال المحملة إلى سوق الثلاثاء الواقع

على ضفتي وادي يَبَة، في وسط بيئة من التلال المكونة من الصخور الجرانيتية، حيث يكتظ هذا الوادي بأشجار النخيل. ورأينا هناك ثمة محاصيل ممتازة من الذرة، والسمسم، تسقى من جدول يتدفق في الوادي، حيث يقوم سوق عُمَارة [الذي يعقد كل يوم ثلاثاء][١٥]. وعمارة قبيلة جذابة، تشبه أعراب تهامة، يلبس أفرادها مئآزر قصيرة من القماش، ويشد الواحد منهم جَنْبِيَّة على وسطه من الأمام. أما شعورهم الطويلة، فقد زينت بنباتات ذكية الرائحة، اشتريت من السوق لهذا الغرض. ويلبس معظم النساء وقليل من الرجال قبعات مصنوعة من الحصير، حيث تتميز قبعات الرجال بأن حوافها واسعة ومرتخية، أما قبعات النساء فهي قصيرة الحواف، ومتصلبة، وتيجانها مرتفعة[١٦].

وعندما اجتزنا الجدول، كان ثمة راع شاب، يشبه رمز الغابات أو الجمال عند الرومان، وقد ملأ بساتين النخيل بترديده لأنغام موسيقية شجية تنبعث من مزماره[١٧]، ثم دخلنا أرضاً مجدبة تتكون من الصخور النارية، والتلال الناتئة حيث توجد شجيرات متفرقة من السمر، ولو أنها عديمة الأوراق المزهرة. وتستمر هذه المنطقة المهجورة حتى وصلنا وادي خَاط[١٨]، ثم أراضي قبيلة حُمَيْضة الزراعية في بَارِق[١٩]. وهي تشبه قبيلة عمارة ويسكن أفرادها في بيوت مستوية الأسقف، بنيت من الحجارة بشكل جيد، وهذه القبائل المستقرة تملك قليلاً من الجمال وبعض الأبقار، وأحجاماً جيدة من قطعان الضأن والماعز[٢٠]، ولكنهم أساساً مزارعون يقومون بزراعة الدخن والذرة سواء في سهول صغيرة تسق عن طريق السيول، أو في بقع طينية في بطون الأودية. وإلى الوراء من آل حميضة، توجد قبيلة آل جَبَلِيْ، وهم يسكنون على ضفتي وادي آل جبلي، أحد روافد وادي حَلِيْ المهمة[٢١]. وقد استطعنا أن نطوي هذا الوادي حتى نصل إلى وادي حلي الذي كنت تواقاً لتتبع مجراه حتى الشاطىء، لكي أزور أعراب تهامة الممتعين.

نحن الآن خارج المنطقة الزراعية، وبالتحديد في أرض البدو، وهذا الإصطلاح يستخدم هنا للدلالة على القبائل التي تعتمد أساساً على الرعي، وتسكن في المنطقة الوعرة الواقعة بين المرتفعات الجبلية، والسهل الساحلي، إنهم، وقبل كل شيء، رعاة قطعان الماعز، ولكنهم يملكون بعض الضأن، والبقر وقليلاً من الجمال، ويقومون بزراعة بقع صغيرة على طول ضفتي الوادي. ويسكن هؤلاء البدو في بيوت صغيرة من الحصر تعرف باسم الخدور. ولا يستطيع المرء أن يرى، في غرب جبال الحجاز، الخيام السوداء «بيوت الشعر» المعروفة في وسط الجزيرة العربية. وأثاثهم الوحيد قليل من الأسرة المُحَبَّلة بحبال من الحصير. وهؤلاء البدو هم رَبِيْعَة الطَّحَاحِيْن، ومُوسَيفِرَة، وبنو هلال، ومَنْجَحَة، وإلى الجنوب منهم فخوذ من بدو بني نُمَار، وشهران، وقحطان، وخولان، والرَّيْث[٢٢].

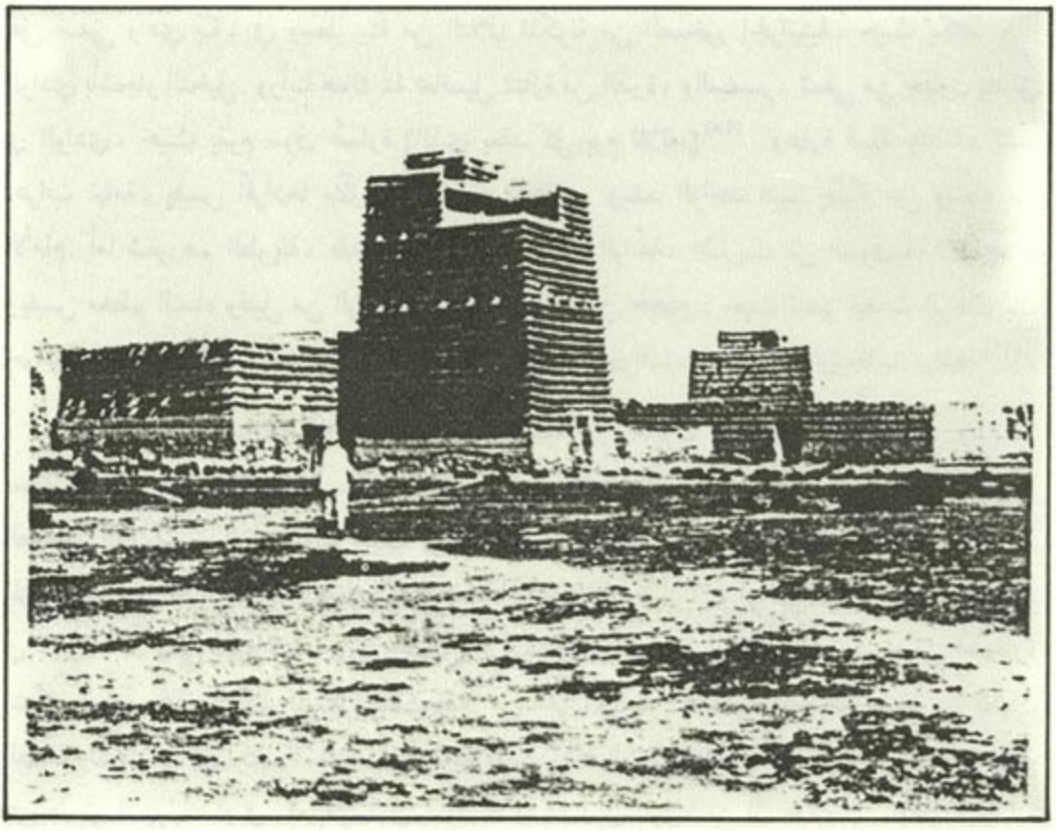

• برج ومنازل مبنية من الطين، ومغطاة بخطوط من الأحجار البارزة في بلاد قحطان •

وقد كانت لهؤلاء، في الماضي القريب جداً، سمعة سيئة كقطّاع طرق، وأهل عنف، ولكن تبدل هذا السلوك في الوقت الحاضر لهيبتهم من ابن سعود. ويلبس هؤلاء مئآزر قصيرة من القماش مصبوغة باللون، الأخضر، والأزرق، أو البني المشوب بحمرة. ويلبس النساء قبعات من القش قصيرة الحواف عالية التيجان.

ثم وصلنا إلى حلي على امتداد يعرف باسم حَلَوِيَّة، حيث يوجد، عبر منطقة صخرية مكشوفة، جدول صغير يتدفق في الوادي ويحف به نبات الحلفا، وأحراش السلم، والسمر وغيرها من الأشجار البرية مثل شجر الأراك، والمرخ، والمَضّ ذي الزهر الأحمر، وشجرة العَدَن بزهورها المحببة إلى النفس، وجذوعها العارية القبيحة، ولبنها الذي تدره من أغصانها ليتحول إلى صمغ، ثم نبات الصبار الذي ينمو في التلال المكونة من الصخور النارية. ورأيت على طول مجرى الغَيْل الذي يعج ماؤه بصغار السمك، كثيراً من طيور البجع، وطائر أبي [illegible]قة، وطائر أبي منجل اللماع، ولوحظ أيضاً

طائر اللقلاق [أبو مشط أو أبو مطرقة]، وطائر البَلَشون الأبيض، ومالك الحزين، وفي بعض الأحيان طائر الخطاف، والدجاج السوداني أو الغِرْغِر، وطائر الدُّرَّاج الذي يشبه الحجل، وطائر البوقير، وطائر الشَّرَقْرَق الحبشي، وآكل النحل ذو اللون الأخضر، وطائر التُّمَّر ذو البريق المعدني، وطائر الصُّرَد أو الدَّغْنَاس، وطائر البابلر أو الأصفر العينين، وطائر البلبل، وطائر الوقواق، وأحياناً طائر النسر. وينساب وادي حلي عبر ممر حصن الطرفين الضيق إلى سهل ساحلي رملي، حيث توجد أول قرية في هذه المنطقة هي قرية السَّبَطَة التي تسكنها قبيلة العُمُور[٢٤]، وفيها سوق الأربعاء، أحدأسواق وادي حلي[٢٥].

تحتوي تهامة على سهل ساحلي رملي يتراوح عرضه بين ١٢ ـ ٢٠ ميلاً[٢٦]، وهي تنقسم إلى تهامة الشام، وتمتد من البِرْك إلى اللِّيْث شمالاً، ثم تهامة عسير، وتهامة اليمن. وتعرف المنطقة الجبلية التي تتوسط بين تهامة الشام وسفوح جبال السراة، ويتراوح ارتفاعها بين ٥٠٠ ـ ٤٥٠٠ قدم، باسم «العُرْضِيَّة»، بينمايطلق على المنطقة الواقعة إلى الجنوب من أبها اسم «الحِبَاطَة». ويطلق على جميع هذه السلسلة الجبلية بما في ذلك عسير التي يزيد ارتفاعها عن ٩٠٠٠ قدم اسم «الحجاز». ويستخدم هنا بشكل شامل اصطلاح الشام الذي يطلق على الشمال، واليمن على الجنوب، والجبلي على الشرق، والبحري على الغرب. ويعرف سكان تهامة باسم التهاميين، ويتمركزن في الأودية التي تستمد سيولها من الجبال. وهم بصفة عامة مستقرون، ولا يوزع الرجل منهم أرضه خارج عشيرته، ولا يبيعها إذاكان له أبناء كبار دون أخذ موافقتهم. ويرث الأبناء حصصاً متساوية، والبنات نصف حصة الرجل. والأودية الرئيسية الواقعة في الشمال [تهامة الشام] هي اللِّيْث، ودَوْقَة[٢٧]، والأَحْسَبة، وقَنُونَا، ويَبَة، وحلي[٢٨]. وفي جميع الإعتبارات فإن وادي حلي، بروافده الواسعة الممتدة من شَرِيْ في الشمال إلى تَيَّه في الجنوب، يعد من أعظمها أهمية، ولا يتفوق عليه إلا وادي بِيْش الذي يعتبر، مع وادي عِتْود وضَمَد الصغيرين، من الأودية الرئيسية في تهامة عسير[٢٩]. وينتسب التهاميون بصورة عامة إلى أسماء أوديتهم، وهكذا، فإن سكان حلي يسمون «الحَلاَوَنَة»، وأهل يبة «اليَبَابِنَة».

ويستوطن هذه الأودية كثير من القبائل المختلفة، ففي وادي حلي أربع قبائل كبرى هم: العَلاَوَنَة، والصُّحَب، وكنانة، والعمور[٣٠]. ومن القبائل في وادي يبه، بنو يَعْلَى، والنَّوَاشِرَة، وبَلْعَيْر، والشَّوَارِدَة[٣١]. وتسكن في الأحسبة قبيلة الأشراف العَبَادِلَة[٣٢]. ولا يجمع هذه القبائل أصل مشترك، ولكنهم عند إعلان الحرب يتحدون تحت راية واحدة. ويوجد من بين هؤلاء السكان فئة كبيرة من العبيد، وبصورة خاصة في تهامة عسير، ولكن كثيراً منهم الآن أحرار ويملكون أرضاً. وعندما

لا يسيل أحد الأودية فإن سكانه يهاجرون إلى أي مكان آخر في تهامة، حيث يستقبلون بالترحاب، ويساعدون في الحصاد، ثم يعودون بعد ذلك إلى أوطانهم، ومعهم أحمال من الحبوب. وعلى العكس عندما يصيب الخير ديارهم في بعض السنوات الأخرى، فإنهم يستقبلون مضيفيهم السابقين. وهذا النظام يشمل الإقليم الممتد من جيزان إلى الليث، وقد صادفت أسراً من أهالي المنطقة المحيطة بمدينة صَبْيَا في طريقهم إلى القنفدة. وتعاني الأودية الصغرى كثيراً من سنوات الجفاف العديدة، إلا أن وادي حلي ووادي بيش يستطيعان الإعتماد على السيول سنوياً، ففي السنة الماضية انفجر العَقْم الرئيسي في وادي حلي[٣٣]، وتبعاً لذلك، أصبح الوادي الذي في أعلى البَيِّضَيْن مهجوراً[٣٤]، فقد انتقل ساكنوه إلى وادي يبة. وتأتي السيول في أي شهر خلال السنة، ولكن فصلي الخريف والشتاء أكثرها اعتياداً، حيث تحجز وتوزع على مساحات كبيرة بواسطة عدد من السدود الترابية تعرف باسم «زَبِيْر»، وهي تحتاج إلى انتباه منتظم؛ لأن السيول التي لا تُستَطاع السيطرة عليها، ربما يلحق فيضانها أذى بالمحاصيل اليافعة.

والمحصولان الرئيسيان في تهامة هما: الذرة التي تنمو في الأراضي الطينية الرسوبية، وتنتج من بذرة واحدة من ثلاث إلى خمس حصدات[٣٥]. والدخن الذي يبذر بصورة عامة على المطر، وينمو في الخَبْت أو الأراضي الرملية بين الأودية. وتحصد الذرة بعد ثلاثة أشهر من بداية زراعتها، ثم بعد ذلك

رجلان من تهامة عسير، أحدهما يلبس مظلة من الحصير، والآخر يلبس خوذة مصنوعة من ورق النخل

(٤٦) رفضت لجنة ضمت ممثلين عن جميع الأحزاب الفلسطينية إعلان الأضراب بمناسبة وعد بلفور، الأمر الذي أدى إلى انتقادات عنيفة ضد الزعماء.

(٤٧) صبحي ياسين: الثورة العربية الكبرى في فلسطين ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ص ١١.

(٤٨) أميل الغوري: فلسطين عبر ستين عاماً ص ٢٥١ ـ ٢٥٢.

(٤٩) كامل محمود خله: المرجع السابق ص ٣٨١.

(٥٠) الثورة الفلسطينية عدد ١٩ ص ٢٧ ـ ٢٨.

(٥١) شؤون فلسطينية عدد ٧ آذار ١٩٧٢ ص ٢٦٧.

(٥٢) عبد العزيز السيد أحمد: المرجع السابق ص ٣٨.

(٥٣) يروي دروزة أن عدد الذين خرجوا مع القسّام كانوا عشرة هم: يوسف الذياوي، حنيفة المصري، نمر السعدي، أسعد المفلح، حسن الباير، أحمد عبد الرحمن جابر، عراني البدوي، محمد يوسف، محمد الحلحولي، معروف الحاج جابر، انظر محمد عزة دروزه: حول الحركة العربية الحديثة ج٣ ص ١١٦.

(٥٤) كامل محمود خله: المرجع السابق ص ٣٨١.

(٥٥) عبد العزيز السيد أحمد: المرجع السابق ص ٣٨.

(٥٦) كامل محمود خله: المرجع السابق ص ٣٨١.

(٥٧) الثورة الفلسطينية عدد ١٩ ص ٢٨.

(٥٨) يقول عبد الوهاب الكيالي «بأن» المجاهدين خاضوا المعركة في ١٩ تشرين الثاني.

(٥٩) عبد العزيز السيد أحمد: المرجع السابق ص ٣٨.

(٦٠) الجامعة الإسلامية في ٢١ تشرين الثاني ١٩٣٥.

(٦١) هما يوسف عبدالله الذياوي من قرية الذيب (عكا) والسيد/ سعيد عطية أحمد مصري الأصل.

(٦٢) أكرم زعيتر: يوميات أكرم زعيتر ـ الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣٥ ـ ١٩٣٩. مؤسسة الدراسات الفلسطينية ط ـ بيروت ١٩٨٠ ص ٢٩.

(٦٣) كامل محمود خله: المرجع السابق ص ٣٩٢.

(٦٤) بيان نويهض الحوت: المرجع السابق ص ٣١٨.

(٦٥) صالح مسعود بو بصير: المرجع السابق ص ١٧٧.

(٦٦) جريدة الجامعة العربية: عدد ١٧٢٥ في ٧ كانون ثاني ١٩٣٦.

(٦٧) أكرم زعيتر: يوميات أكرم زعيتر (الحركة الوطنية الفلسطينية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ط١ بيروت ١٩٨٠ ص ٢٩.

(٦٨) المصدر نفسه: ص ٢٩.

(٦٩) المصدر نفسه: ص ٣٢.

(٧٠) شؤون فلسطينية: عدد ٦ كانون الثاني ١٩٧٢ ص ١٨٦.

(٧١) كامل محمود خله: المرجع السابق ص ٣٨٢.

(٧٢) كامل محمود خله: المرجع السابق.

(٧٣) أكرم زعيتر: المصدر نفسه ص ٣٢.

(٧٤) أكرم زعيتر: المصدر نفسه ص ٣٢.

(٧٥) أكرم زعيتر: المصدر نفسه ص ٣٢.

(٧٦) عبد الوهاب الكيالي: المرجع السابق ص ٢٨٥ ـ ٢٩٦.

(٧٧) شؤون فلسطينية عدد ٦ ص ١٨٦.

(١٠) عبد الوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط٨، بيروت ٨١ ص ٢٩٣.
(١١) عبد العزيز السيد أحمد: المرجع السابق ص ٢٤ ـ ٢٥.
(١٢) شؤون فلسطينية عدد ٦ كانون ثاني ١٩٧٢ ص ١٨٢.
(١٣) كامل محمود خله: المرجع السابق ص ٣٧٥.
(١٤) بيان نويهض الحوت: المرجع السابق ص ٣٢٢.
(١٥) الثورة الفلسطينية عدد ١٩ في ١٩٦٩/٩/١٥ ص ٢٤.
(١٦) شؤون فلسطينية: عدد ٦ ص ١٨٢.
(١٧) صبحي ياسين: المرجع السابق ص ٢٠ ـ ٢١.
(١٨) صالح مسعود أبو بصير: المرجع السابق ص ٧٦ ـ ١٧٧.
(١٩) بيان نويهض الحوت: المرجع السابق ص ٣٢٣.
(٢٠) إبراهيم الشيخ خليل: «رسالة من مجاهد قديم» مجلة شؤون فلسطينية عدد ٧ في آذار ١٩٧٢ ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨.
(٢١) عبد العزيز السيد أحمد: المرجع السابق ص ٢٥.
(٢٢) صبحي ياسين: المرجع السابق ص ٢١.
(٢٣) عبد الوهاب الكيالي: المرجع السابق ص ٢٩٣.
(٢٤) شؤون فلسطينية عدد ٧ ص ٢٦٩.
(٢٥) عادل حسن غنيم: «ثورة عز الدين القسّام» مجلة شؤون فلسطينية عدد ٦ كانون ثاني ١٩٧٢ ص ١٨٢.
(٢٦) محمد عزة دروزه: حول الحركة العربية الحديثة ج٣ ص ١٢٠ ـ ١٢١.
(٢٧) كامل محمود خلة: المرجع السابق ص ٣٧٨.
(٢٨) أميل الغوري: فلسطين عبر ستين عاماً ص ١٩٧.
(٢٩) مجلة شؤون فلسطينية عدد ٧ آذار ١٩٧٢ ص ٢٦٩.
(٣٠) أميل الغوري: فلسطين عبر ستين عاماً ص ٢٥١ ـ ٢٥٢.
(٣١) عبد الوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث ـ ص ٢٣٩.
(٣٢) كامل محمود خله: المرجع السابق ص ٣٧٧.
(٣٣) صبحي ياسين: المرجع السابق ص ٢٣ ـ ٢٤.
(٣٤) لقد تم اختيار نخلال لما لها من أهمية عند الصهاينة، وقد اعترف وايزمان بذلك بقوله «إن نخلال مستعمرة ذات قيمة خاصة في نظري لأنها فيها ابتدائي لسبا حتى وبها أختمها وهي رمز عملنا العظيم في مرج ابن عامر ولست أبالغ إذا وصفتها بأنها قلب المرج «انظر الجامعة العربية عدد ٥٥٣ في ٢٠ آذار ١٩٣٢.
(٣٥) جريدة الجامعة العربية: عدد ٩٨١ بتاريخ ٢٩ كانون الأول ١٩٣٢.
(٣٦) كامل محمود خله: المرجع السابق ص ٣٧٨.
(٣٧) بيان نويهض الحوت: المرجع السابق ص ٣٢٢.
(٣٨) عبد الوهاب الكيالي: المرجع السابق ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣.
(٣٩) حسن صبري الخولي: سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين، دار المعارف بمصر ص ٥٨٣ ـ ٥٨٥.
(٤٠)
(٤١) صبحي ياسين: الثورة العربية الكبرى في فلسطين ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ص ٢٢ ـ ٢٣.
(٤٢) كامل محمود خله: المرجع السابق ص ٣٨٣.
(٤٣) ناجي علوش: المقاومة العربية في فلسطين ١٩١٧ ـ ١٩٤٨ ص ١٠٢.
(٤٤) عبد الوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث ص ٢٩٣.
(٤٥) عبد الوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

لمقاومة سلطة الانتداب واليهود في فلسطين، وأصبح الرأي العام ينظر إلى القسَّام وأتباعه نظرة تقدير بالغ وإكبار عظيم للأبطال الشهداء.

الخاتمة

يعتبر جهاد الشيخ عزالدين القسَّام رائد النضال القومي في فلسطين، فقد كان معروفا بالوطنية الصادقة، وعرف عنه الحذق في تشكيل التنظيمات السرية الفعالة.

وكان العامل الديني هو العامل الأساسي في قيام الشيخ الشهيد عزالدين القسَّام في ثورته، فهو شخصية دينية كبيرة ورجل ذو مكانة اجتماعية، ولكن تربيته الدينية وفهمه للاسلام جعلاه رافضاً للظلم مستعدّاً لمقاومته، ليس لمجرد الإسهام في تحرير جزء من وطنه بل تنفيذا لأمر الله سبحانه وتعالى من وجوب الجهاد في سبيله ومقاومة الظلم والظالمين.

وقد ألقت ثورة القسَّام ظلا كبيرا على المسرح السياسي الفلسطيني وأصبحت كل محاولة لاقامة تقارب بين الفلسطينيين والسلطات الحكومية مكتوبا عليها الفشل، حيث أكّدَ القسَّام بأنه لا حل لقضية فلسطين إلا عن طريق الجهاد الاسلامي وان الأحزاب ما هي إلا عبث وفساد وألاعيب إذا لم تكن قائمة على الايمان الصحيح.

والحق لقد كان استشهاد عزالدين القسَّام ورفاقه في أحراش يعبد بمثابة الشرارة التي اشعلت نار الثورة في صدور العرب وحفَّزتهم للمقاومة سنة ١٩٣٦ ضد بريطانيا والصهيونية.

●●●

الهوامش:

(١) عبد العزيز السيد أحمد: عز الدين القسَّام ط١ ١٩٧٧ ص ٧ ـ ٨.

(٢) كامل محمود خلة: فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ ـ ١٩٣٩، مركزا الأبحاث ١٩٧٤ ص ٣٧٥.

(٣) عبد العزيز السيد أحمد: المرجع السابق ص ١٢.

(٤) عادل حسن غنيم: «ثورة الشيخ عز الدين القسَّام» شؤون فلسطينية عدد ٦ كانون ثاني ١٩٧٢م ص ١٨١.

(٥) صالح مسعود بو بصير: جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن، دار الفتح ١٩٦٩ ص ١٧٥.

(٦) بيان نويهض الحوت: القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧ ـ ١٩٤٨ مؤسسة الدراسات ـ بيروت ١٩٨١ ص ٣١٩.

(٧) صبحي ياسين: الثورة العربية الكبرى في فلسطين ١٩٣٦ ـ ١٩٣٥، دار الهناء للطباعة ١٩٥٩ ص١٩ ـ ٢٠.

(٨) أميل الغوري: ملحمة الفداء الفلسطيني ـ الهيئة العربية العليا ص ٢٦ ـ ٢٧.

(٩) صالح مسعود بو بصير: المرجع السابق ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

سعيد عطية المصري إلى مسجد الجريئة (النصر) رغم أنف السلطات، وبعد صلاة الجنازة أبّن الشيخ يوسف الخطيب قاضي مكة الأسبق الشهداء بكلمة مؤثرة بيّن فيها أجر الشهداء عند ربهم[٦٩].

وبعد ذلك سار موكب الجنازة مجلّلاً بالأعلام السورية والمصرية والعراقية والسعودية واليمنية[٧٠] وذلك تعبيراً عن إيمان الشعب الفلسطيني بالوحدة العربية التي عبّر عنها الشيخ الشهيد بالروح والدم. وانقلبت الجنازة إلى مظاهرة وطنية نادوا بسقوط الاستعمار البريطاني والوطن القومي اليهودي، وحدث صدام بين الشباب العربي وبين شرطة الانجليز جرح على أثره ثلاثة من الإنجليز وآخر عربي[٧١]، وأبت الجماهير التي تبلغ عشرين ألفا[٧٢] إلا أن تُشيّع الشيخ عز الدين القسّام إلى مقره الأخير في قرية الياجور التي تبعد عن حيفا نحو عشرة كيلومترات مشتها على الأقدام، وقد وصف شاهد عيان الجنازة بقوله: «آلاف المشيعين والجثث على الأكف مرفوعة تصرخ «الله أكبر ـ الله أكبر» والنساء يزغردن من السطوح والشرفات والنوافذ، والكشافة ينشدون أناشيد تثير النخوات ثم ارتفع صوت ـ والجثث مرفوعة ـ يصرخ: الانتقام ـ الانتقام، فرددت الألوف بصوت واحد كالرعد القاصف: الانتقام ـ الانتقام، وبعد جهد شاق سار الموكب وئيداً ونحن وراء النعوش وأصوات «الله أكبر ـ الله أكبر» تدوي في الآفاق[٧٣] وقد ووريت الجثث في حالتها الطبيعية وفي ملابسها المخضبة بالدماء الزكية، وقد استغرق السير بالجنازة من الجامع الكبير في ساحة الجرينة إلى مقبرة الياجور ثلاث ساعات ونصف الساعة[٧٤].

وقد حضر الجنازة وفد من نابلس مكون من عادل زعيتر وأكرم زعيتر، راشد أبو غزالة بشير الشيخ ياسين، الحاج فوزي الخياط، حريز الحبش، وكذلك صبحي الخضراء ورشيد الحاج ابراهيم[٧٥]. أما بقية الزعماء السياسيين فقد تخلفوا عن السير في الجنازة، وكانت برقيات التعزية التي أرسلوها فاترة، إذ لم يفتهم التنبه إلى أن حركة القسّام كانت بمثابة دليل على عقم أساليبهم، كما أن تضحيته وتجرده فضحت نفعيتهم وأنانيتهم[٧٦].

وقد نُعي الشيخ الشهيد عز الدين القسّام ورفاقه من مآذن المسجد الأقصى ومساجد فلسطين، وصلى الناس عليهم في كل مكان صلاة الغائب[٧٧].

وكان لاستشهاد القسّام أثر عميق في فلسطين كلها، فأيقظهم من غفلتهم وأفهمهم أن لسان القوة هو اللسان الوحيد الذي يجب أن تخاطب به السلطة المنتدبة، وأن لغة الرصاص هي اللغة الوحيدة التي تفهمها وهكذا برهن القسّام أن الكفاح المسلح والإيمان الوطني الصحيح هما الطريق

إن خرجت أن يتخطفهم الذل والعار والموت، وليس لدي ما يدفع عنهم عوادي الزمان، يسمع القسَّام ... هذا فيثورون ويخرجون ... يخرجون عمن؟ يخرجون عن أعشاش فيها قطع من اللحم كأفراخ العصافير، ينتظر كل منها معيله ليسقط في منقاره ما يسد به جوعه ويروي عطشه... فيندفع القسَّام وصحبه من تلك الأعشاش لتثبيت المبدأ وإحقاق الحق وإعلاء شأن الإيمان، ونحن إذ نرى منهم ذلك لا يسعنا إلا أن نشعر بتبكيت الضمير واحمرار الوجوه، فندعو الله أن ينير قلوبنا بالإيمان»[٦٦].

فلسطين تودع القسَّام:

سرى خبر استشهاد القسَّام في أنحاء فلسطين مسرى النار في الهشيم، ورأى الشعب بعينه الفارق بين قائد لا يتلفت إلى عرض الحياة الدنيا، فقد ثقف ونظم وناضل حتى استشهد في سبيل الله والوطن، قاتل العدو بالسلاح الذي يقاتله به، وخاطبه باللغة التي يفهمها، لغة النار والرصاص، وبين قادة يلهثون وراء مصالحهم الشخصية وتستغرق خلافاتهم أكثر جهدهم، يخشون على مصالحهم فيكون نضالهم أقرب إلى رجاء سلطة الاحتلال منه إلى مقاومتهم.

وقبل أن يتسلم أهالي الشهداء جثثهم اشترطت سلطات الانتداب شرطين:

أ ـ أن يكون الدفن الساعة العاشرة في صباح الغد وذلك لانشغال الناس في أعمالهم في تلك الساعة مما يؤدي إلى عدم وجود شغب واضطرابات في حيفا.

ب ـ أن تسير الجنازة من بيت الشيخ عز الدين الواقع خارج البلدة رأساً إلى المقبرة في بلد الشيخ فلا يستطاع والحالة هذه السير بالشهداء داخل المدينة[٦٧] وذلك حتى لا يشترك الناس في الجنازة خوفاً من إثارة البغضاء والثورة ضد جنود الإنجليز والصهاينة والعرب الذين يعملون مع السلطات.

ونتيجة لذلك قام الأستاذ أكرم زعيتر بنشر بيان في جريدة الجامعة الإسلامية يدعو الزعماء ورؤساء الأحزاب وبقية الناس للسير في الموكب، ومما جاء في البيان «نمشي غداً في موكب تشييع صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عز الدين القسَّام رئيس جمعية الشبان المسلمين في حيفا وخطيب مسجدها الكبير وأخوانه الذين استشهدوا في يعبد إلى جنبه ونودعهم لحودهم في حيفا» «وأني لأدعو هذا اليوم الزعماء ورؤساء الأحزاب إلى السير في الموكب»[٦٨].

حمل المواطنون جثمان الشيخ عز الدين القسَّام وجثمان الشيخ يوسف عبدالله الذيباوي وجثمان

فردد الجميع «لبيك يا فلسطين ـ لبيك يا فلسطين، جئناك مستشهدين ... الله أكبر ـ الله أكبر» كانت نتيجتها أن سقط القائد الشهيد مضرجاً بدمائه[٥٩]. وكان القائد القسَّام يحمل مصحفاً في جيبه وأربعة عشر جنيهاً ومسدساً كبيراً[٦٠] واستشهد معه اثنان من رفاقه[٦١] كما قبض البوليس على أربعة من رفاق القسَّام وهم حسن الباير من قرية (برقين) والشيخ أحمد جابر من (حيفا) وعرابي البدوي من قرية (قبلان) بنابلس والشيخ محمد يوسف من (حيفا) كما استولى على تسع بنادق وبندقية صيد وبندقية سريعة الطلقات وكمية من الذخيرة[٦٢].

لقد كان لاستشهاد القسَّام على هذه الصورة وقع أليم وحزين في جميع أنحاء فلسطين، لقد أطلق عليه الشعب لقباً هو أبو الوطنية[٦٣]. كما أضحى القسَّام منذ صباح ٢٠ تشرين الثاني علماً من أعلام الجهاد يتردد اسمه في البلاد كلها، وكانت الثورة القسَّامية صفعة قوية للساسة الفلسطينيين التقليديين الذين كان الجاه عندهم أهم من الوطن، كما جدد استشهاده في النفوس معنى التضحية والاعتزاز وقوى من عزائم شعب فلسطين الأبي برغم قلة العتاد وضآلة الزاد.

وقد انطلقت الصحافة العربية أثر استشهاد القسَّام مباشرة تشيد بجهاده وبادرت بتسمية أنصاره بـ(عصبة المجاهدين) وأصبحت هذه التسمية فيما بعد عصبة القسَّام، وقد جاءت هذه التسمية رداً على البلاغات الحكومية والأخبار الرسمية التي دعتهم بالعصابة الإرهابية تارة وبعصابة الأشقياء تارة أخرى.

وقد غضبت الصحافة لهذه الإهانة وأخذت تكتب أنهم عصبة وليسوا عصابة وفي رثاء أكرم زعيتر للشهداء في جريدة الجامعة الإسلامية جاء أنهم (عصابة الأشقياء في البلاغ الرسمي وعصبة من الشهداء في سجل القضية»[٦٤].

ورثاه الشاعر فؤاد الخطيب فقال:

أولت عمامتك العمائم كلها ... شرفا تقصر عنده التيجان
إن الزعامة والطريق مخوفة ... غير الزعامة والطريق أمان
ما كنت أحسب قبل شخصك أنه ... في بردتيه يضمها إنسان
يا رهط عز الدين حسبك نعمة ... في الخلد لا عنت ولا أحزان
شهداء بدر والبقيع تهللت ... فرحاً، وهش مرحبا رضوان[٦٥]

وقد قال جمال الحسيني عن ثورة القسَّام: «ثورة القسَّام ثورة علينا جميعاً شباناً وشيوخاً وكهولاً، إذ يقول كل واحد منا في قلبي إيمان وفي نفسي إخلاص وعزيمة ولكني مثقل وورائي عائلة كبيرة، أخاف

العربية من جهة أخرى ولإحداث هزة على المستوى الفلسطيني ولا سيما بالنسبة للأحزاب والقيادات حتى توحد طاقاتها وتتخلى عن أساليب الاحتجاج والمذكرات والوفود التي سارت بالقضية إلى الخلف بدلاً من أن تدفعها إلى الأمام[٥٥] وأعتقد أن الأمر مستبعد للأسباب التالية:

أ ـ إن حيفا كانت في ذلك الوقت قاعدة حربية بريطانية.

ب ـ إن الأمر يحتاج إلى مزيد من الاستعداد والعتاد والإعداد والوعي علماً أن عدد أنصار القسَّام لا يتجاوز الثمانمائة.

جـ ـ إن الشيخ عز الدين القسَّام يتميز بالحكمة وصواب الرأي والمعرفة التامة بقوة بريطانيا في فلسطين.

د ـ معرفته التامة عدم استعداد القيادات الفلسطينية التقليدية لتأييده في ذلك العمل.

حقاً كان الشيخ القسَّام حريصاً على عدم اكتشاف أمره وجماعته[٥٦] ولكن حدثت حادثة كشفت عن مركز القيادة القسَّامية في ١٤ تشرين الثاني ١٩٣٥ ويصف أبو إبراهيم الكبير ما حدث فيقول «هاجم مجهولون ليلاً مستوطنة عين حارود» الواقعة شمال شرقي نورس حيث كان القسَّام» ومروا أثناء رجوعهم بالقرب من مركز الشيخ. وفي الصباح مرت دورية من ثلاثة أشخاص إنجليزي ويهودي وعربي مع كلب أثر، وكان محمود سالم ويوسف الذيباوي يقفان حرساً، فلما رأى محمود سالم الدورية سأل الذيباوي عما يفعل، فقال الذيباوي إذا اقتربوا منك أطلق النار، فما كان من محمود سالم إلا أن أطلق النار فقتل الشاويش اليهودي، وعندما سمع الشيخ إطلاق النار، استفسر عن السبب، فأخبر بما جرى، فنادى جماعته وقال لهم: «لنرحل على الفور حتى لا نصطدم بالقوات البريطانية» ومنذ تلك اللحظة بدأت الجماعة مسيرتها، ولكن الجواسيس انتشروا في المكان، فما إن وصلت جماعة الشيخ إلى أحراش يعبد حتى كانت مطوَّقة[٥٧] وتواصلت التعزيزات البريطانية تزيد من كثافة الطوق وتوسع دائرته ليشمل مجموعة من قرى جنين مثل يعبد، اليامون، برقين، كفرذان، فقوعه، صندلة، البارد، وحاصرت قوات الاحتلال عرين البطل المجاهد، ودارت معركة غير متكافئة بين الثامنة والعاشرة صباح ٢٠ تشرين ثاني ١٩٣٥[٥٨] صاح خلالها أحد أفراد البوليس العربي طالباً منهم الاستسلام، فرد عليه الشيخ قائلاً «إننا لم نستسلم، إن هذا جهاد في سبيل الله والوطن» والتفت إلى رفاقه وقال لهم «موتوا شهداء» كما ناداهم الضابط البريطاني وقال لهم «استسلموا تنجوا» ولكن الشيخ صرخ في وجهه قائلاً «لا لن نستسلم هذا جهاد في سبيل الله والوطن» ثم تلفَّت إلى أصحابه وهتف بهم «موتوا شهداء»

السلاح والمال، والثورة تحتاج إلى ذخائر كل يوم، وإلى مصروفات كل يوم، فماذا لدينا من كل ذلك، قال: ليس عندنا من الذخائر والسلاح إلا ما في أيدينا، قلت: إننا بما في أيدينا لا نستطيع الوقوف في وجه الإنجليز، فعلينا الاستمرار في عملنا كما هو الآن، أي القيام بالغارات ليلاً والعمل نهاراً، قال: نحن لا نريد أن نعلن الثورة، إنما نريد أن نتسلح ونخرج إلى القرى كي نحثها ونحضها على الجهاد. قلت: ولكن يا شيخ إن الجواسيس لن يتركونا، قال سنكون حذرين وأردف: سنخرج نحن والجماعة أما أنتم فعليكم أن تبقوا حيث أنتم لكي تساعدونا[٥٠].

ويؤكد السيد إبراهيم الشيخ خليل في مقالته «رسالة من مجاهد قديم» ما روى إبراهيم الكبير حيث يقول «كان هناك خلاف بسيط على توقيت إعلان الثورة، ففي أوائل عام ١٩٣٥م رأى القائد بأن المستعمر يراقب تحركات القسّاميين مراقبة دقيقة، وكان القائد يتحسس بأن المستعمر سيعتقل النخبة الصالحة من أخوانه وإفساد جميع مخططات الثورة قبل أن تظهر للمواطنين، وكان رأيه الخروج إلى الجبال والطواف بالقرى وحث المواطنين على شراء السلاح والاستعداد للثورة، وكان رأي الأخ أبي إبراهيم وبعض الأخوان التريث في الخروج إلى الجبال مسلحين بل الطواف بالقرى بدون سلاح وحث المواطنين على ما يلزم للثورة، ولكن هذا الخلاف كان بسيطاً جداً بحيث أنه عندما حزم القائد أمره على الخروج إلى الجبال كان يوجد في الصندوق مبلغ مائة جنيه فأخذه أبو إبراهيم من الصندوق وأرسله إلى القائد مع المرحوم الحاج علي الحلج من قرية يعبد[٥١].

وقبل الخروج دعى القائد في أوائل تشرين الثاني ١٩٣٥ رجال قيادته وتدارسوا الموقف، ثم أصدر أمره[٥٢] القيادي الأول «ليتوجه كل إلى أهله يستودعهم الله ويعاهدهم على اللقاء في الجنة، التجمع في بيت محمود سالم المخزومي» نستدل من ذلك على مدى قوة إيمانهم وعقيدتهم في العمل الذي سيقومون به واضعين أمام أعينهم الشهادة أو النصر المبين والحياة الكريمة.

واختلفت المراجع العربية في مغادرة القسّام حيفا، أحدها تشير إلى أنه غادرها في ١٢ تشرين الثاني وبصحبته ٢٥ رجلاً[٥٣] من أنصاره قاصدين منطقة جنين، بينما تشير مراجع أخرى إلى أن خروجه كان قبل ذلك، إذ يبدو أنه غادر حيفا ليلة ٢٦/٢٧ تشرين الأول ١٩٣٥ بعد الإضراب الشامل الذي عم فلسطين آنذاك احتجاجاً على عملية تهريب الأسلحة[٥٤] وذلك لدعوة الفلاحين في تلك المنطقة لحمل السلاح في وجه البريطانيين والصهيونيين وإقامة قواعد سرية في قرى جنين لتبدأ بعد ذلك أعمال الثورة التي كان من المحتمل أن تبدأ بعملية عسكرية ذات هدف سياسي بارز بحيث يتم إحتلال مدينة حيفا ثلاثة أيام كاملة لإسماع العالم صوت الثورة قوياً من جهة، ولاستنهاض همم الدول

وفي الحقيقة، لم أستبعد اتصال الشيخ القسَّام بالإيطاليين باطلاع الحاج محمد أمين الحسيني الذي كانت تربطه به علاقة وثيقة والذي كان يتميز بشدة الحذر والحيطة والكتمان وذلك ابعاداً لاشتباه السلطات البريطانية وخصوم الحركة الوطنية[٤٤].

إنطلاق الثـــورة:

بسبب زيادة الهجرة اليهودية، وزيادة عدد العاطلين من العرب عن العمل، والاستفزازات الصهيونية كالتدريب العسكري السافر ومهاجمة الفاشيين اليهود من أتباع جابوتنسكي للقرى العربية[٤٥]. ومواقف الساسة الفلسطينيين المتساهلة الهزيلة نحو الحكومة[٤٦] ونتيجة لذلك قام الشيخ عز الدين القسَّام بالاتصال بالحاج محمد أمين الحسيني، فأرسل أحد اتباعه وهو محمود سالم المخزومي إلى المفتي طالباً منه إعلان الثورة في جنوب البلاد، في الوقت الذي يعلنها فيه القسَّام في الشمال وقيل إن المفتي أجاب أنه يؤثر التوصل إلى حل سياسي على اللجوء إلى ثورة مسلحة[٤٧] بينما يروي الأستاذ أميل الغوري بأن القسام اتصل بالحاج أمين للوقوف على رأيه في الخروج، فوافق المفتي على رأي القسَّام، وأقر خطوته وتعهد بمد الثورة العتيدة بالرجال والأموال والسلاح[٤٨].

نلاحظ: أ ـ الاختلاف الشاسع في الروايتين من حيث نتيجة الاتصال.

ب ـ مدى ثقة وصلة الشيخ عز الدين القسَّام بالمفتي.

وبينما كانت السلطات البريطانية تراقب تحركات الشيخ ورفاقه ـ وقد خصصت لذلك عدداً من رجال البوليس السري كان أبرزهم أحمد نايف ـ[٤٩] فقد صمم على الخروج.

وقد حدث خلاف بين القسَّام وأحد رفاقه حول الخروج بالسلاح أو بدونه ويوضح لنا أبو إبراهيم الكبير المسألة فيقول «كان الشيخ قد أعد جماعة غيرنا (بسبب سجن أبي إبراهيم الكبير) واتفق معهم على الخروج إلى الثورة، وكنت ذات يوم في البيت، عندما جاءني قبل الغياب حسن البابر، من الذين هيأهم الشيخ بعد سجننا، قال حسن البابر: أرسلني لك الشيخ في خبر، قلت ما هو؟ قال: الشيخ يريد رأيك في خروجنا قلت: عندما يقرر الشيخ شيئاً فعلينا التنفيذ قال: ولكن يريد رأيك، فلم أعطه الرأي وأوضح السبب أبو إبراهيم «لأننا كنا تلاميذه» وأضاف «ولقد عاد البابر وأخبر الشيخ بما حصل. فقال الشيخ: نصلي غداً في جامع الحاج عبدالله ونرى أبا ابراهيم، وفي الفجر التقينا في الجامع وصلينا واجتمعنا في غرفة هناك، قال الشيخ: نريد الخروج فما رأيك؟ قلت: ليس لي رأي ولكن الشيخ أصرَّ عليَّ، فقلت له: يا شيخ، ماذا لدينا من السلاح نحن خارجون لإعلان الثورة، وهذا يحتاج إلى

٢) **الوحدة الثانية**: خاصة بالتدريب العسكري وهي بإشراف ضابط سابق في الجيش العثماني.

٣) **الوحدة الثالثة**: للاستخبارات ومراقبة خطط الإنجليز واليهود السرية، ومن عناصرها الشيخ ناجي أبو زيد، وكان يحدّد في هذه الوحدة العمال الذين يعملون في المصالح الحكومية وخاصة في دوائر البوليس، والعمال الذين يعملون مع اليهود لمعرفة النشاط السري للأحزاب اليهودية.

٤) **الوحدة الرابعة**: وكانت من العلماء، وأبرز أعمالها الدعوة إلى الجهاد في المساجد والمجتمعات، وقد كان الشيخ كامل القصاب موجهاً ومستشاراً في هذه الوحدة.

٥) **الوحدة الخامسة**: وهي خاصة بالاتصالات السياسية، ويقول صبحي ياسين «وقد عرفت من أفرادها الشيخ محمود سالم المخزومي وهو من قرية زرعين الذي اتصل بقنصل إيطاليا في القدس أثناء حرب الحبشة وبقنصل تركيا بقصد شراء أسلحة حديثة»[٤١].

وقد استبعد أحد المراجع اتصال الشيخ القسّام بالإيطاليين للأسباب التالية:

أ ـ إنَّ اتصال الإيطاليين قد تم بالفعل مع الحاج أمين الحسيني، وهو القادر على تحريك الجماهير العربية في فلسطين في ذلك الوقت.

ب ـ لم يكن الشيخ القسّام، وهو رجل دين قد نسي ما قام به الإيطاليون ضد زعيم ديني آخر هو عمر المختار، ولم يمض على استشهاده أكثر من أربع سنوات.

جـ ـ إن فقر الحركة مالياً، حيث لم يكن في صندوق الجماعة عندما خرجوا من حيفا في أكتوبر ١٩٣٥م إلاّ مائة جنيه، ينفي ذلك الاتصال.

د ـ إن التقرير الرسمي البريطاني لعام ١٩٣٥م، لا يشير إطلاقاً إلى أي نوع من الأسلحة الإيطالية التي صادرتها واستولت عليها السلطات البريطانية طيلة ذلك العام[٤٢].

بينما لم تستبعد مراجع أخرى أن يكون القسّام قد أقام بالفعل علاقات مع الإيطاليين الذين ازداد اهتمامهم بشؤون فلسطين بعد حملتهم على الحبشة وما أعقب ذلك من توتر في علاقاتهم بالبريطانيين بسبب تلك الحملة[٤٣] ولم يكن الدافع لهذا الاتصال السري المحتمل بالإيطاليين سوى الضرورة العملية لإقامة تعاون مع العناصر والجهات المعادية للبريطانيين بالرغم أن الإيطاليين كانوا مكروهين في فلسطين بسبب اضطهادهم للشعب الليبي[٤٤].

الشعب سيدفع تبرعات كافية للثورة بعد إعلانها مباشرة وبعد أن يعرف أهداف الثورة ويشاهد الانتصارات»[٣٣].

وفي ليلة ٢٢ كانون الأول ١٩٣٢ قام القسّاميون بإلقاء قنبلة على منزل يوسف يعقوبي في مستعمرة نحلال[٣٤] فأصيب صاحب المنزل وابنه داود بجراح خطرة كانت سبباً لوفاتهما فيما بعد، فثار اليهود بسبب هذه الحادثة وحوّلوا جنازة يعقوبي إلى شبه مظاهرة على رأسها الدكتور أرلوزوروف رئيس اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية، كما أعلنت الحكومة عن تخصيصها مكافأة قدرها ٥٠٠ جنيه فلسطيني لأي شخص يقدّم إخبارية تؤدي إلى إلقاء القبض على من قاموا بعملية نحلال أو إدانتهم[٣٥].

كما شارك رفاق القسّام في ثورة ١٩٣٣[٣٦] ثم قامت العصبة بثلاث عمليات أقوى من الأولى[٣٧] وبعد حوادث ١٩٣٣ بدأ القسّام بجمع التبرعات لابتياع كميات صغيرة من الأسلحة إستعداداً للقيام بثورة ضد الحكومة التي اعتبرها الحامية الحقيقية للصهيونية في فلسطين وحافظ في اتصالاته وإعداداته على السريّة التامة[٣٨].

وقد قفزت الصهيونية قفزات سريعة في أوائل منتصف الثلاثينات من القرن العشرين حتى نجحت في إغراق فلسطين بأكثر من ١٥٠ ألف يهودي جاءوا إليها من كل صوب وحدب، وأخذت سياسة التهويد طريق العنف والسرعة وذلك عن طريق نقل مساحة شاسعة من الأراضي نتيجة ما أصدره أرثر واكهوب من قوانين وتنظيمات، وقد راع العرب إمعان واكهوب في سياسة التهويد، وألهبت تصرفاته مشاعرهم، وعقدوا في طول البلاد وعرضها اجتماعات شعبية تنادي فيها عرب فلسطين إلى عدم التعاون مع سلطات الانتداب ومقاطعة لجانها بل تحدّي قوانينها وأذاعت اللجنة التنفيذية العربية بياناً في آذار ١٩٣٣ طلبت فيه من عرب فلسطين أن يوجّهوا كفاحهم ضد الإنجليز باعتبارهم أصل الداء[٣٩].

وبسبب تضخم الهجرة اليهودية، وازدياد مساحة الأراضي التي انتقلت لليهود، ووفاة موسى كاظم الحسيني في آذار ١٩٣٤م رئيس اللجنة التنفيذية، وعدم قدرة تلك اللجنة على قيادة الحركة الوطنية، واكتشاف أسلحة وذخيرة حربية مخبأة في إرسالية اسمنت مرسلة إلى اليهود[٤٠]. كل ذلك دفع الشيخ عز الدين القسّام وصحبه إلى تنظيم عملهم الثوري وتقسيمه إلى خمس وحدات أو فروع:

١) **الوحدة الأولى:** خاصة بشراء السلاح، ومن قادتها الشيخ حسن البابر والشيخ نمر السعدي.

انتسب إلى حزب الاستقلال عندما أُسِّس في أغسطس ١٩٣٢ [٢٦] والواقع أن الشيخ لم يكن بعيداً عن تيار الحركة الوطنية في البلاد، وكانت له صداقات خاصة مع بعض أركان حزب الاستقلال المقيمين في حيفا ومنهم رشيد الحاج ابراهيم [٢٧] كما كان الشيخ عز الدين القسَّام عضو في اللجنة التنفيذية للحزب العربي الذي يتزعمه جمال الحسيني والذي تأسس في ٢٥ آذار ١٩٣٥ [٢٨]. وقد نفى إبراهيم الشيخ خليل انتسابه إلى أي حزب قائلاً «أما بالنسبة لتبعية القسَّام وارتباطه بحزب معين، فإن الذي أعرفه معرفة حقيقية، ويعرفه العديد من أخواني الأحياء أمثال أبو إبراهيم الكبير والشيخ سليمان أبو حمام ومحمد عبد القادر أبو الهيجاء وحسن شبلاق والحاج حسين حمادة وأحمد الثوية والشيخ محمد الحنفي ومحمد علي دلول وغيرهم كثيرون.. بأن القائد الشهيد لم يكن له أي إرتباط حزبي مع أي حزب من الأحزاب، وأن ارتباطه الوحيد كان مع العقيدة الإسلامية وحدها» [٢٩].

أعمـال العصبـة:

تعتبر المنظمة القسّامية أعظم حركة فدائية عرفها تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية بل تاريخ الجهاد العربي الحديث، فالأعمال التي قام بها القسّاميون كانت أروع وأعظم مما قام به المجاهدون في فلسطين، فقد كانوا يقومون بملاحقة الذين يخرجون عن الشعب ومصالحه، مثل التعاون مع الحكومة ضد الحركة الوطنية، أو التجسّس لحساب المخابرات البريطانية، أو بيع الأراضي لليهود، أو السمسرة عليها لحساب الأعداء، والتصدي لدوريات الجيش البريطاني، والشرطة، والاصطدام بها، وقطع طرق المواصلات، والإغارة على ثكنات الجيش، ومراكز الشرطة [٣٠].

وقد اشتركت جماعة عز الدين القسَّام في الاضطرابات التي نشبت في الحي القديم في حيفا ورافقتها عدة غارات على حي هادارها كرمل ضاحية حيفا اليهودية الشهيرة [٣١].

كما اشترك رفاق القسَّام في أحداث ثورة البراق [٣٢]، وتشير بعض المصادر العربية إلى أنه بعد هبّة البراق سنة ١٩٢٩م حدث إنقسام داخل حلقات القسَّام، إذ انشق عدد من أخوان القسَّام وعلى رأسهم أبو إبراهيم الكبير والدافع لهم هو أنهم رأوا أن الوقت حان لإعلان الثورة، حيث يرون الخطر يهدد كيان البلاد. وكان هذا الرأي لا يراه الشيخ القسَّام بحجة أن الإعداد للثورة لم يكتمل وسبب آخر دفع المنشقين هو أنه يجب أن تجبى الأموال اللازمة للثورة من الشعب بكل وسيلة ممكنة، بينما يميل القسَّام بل يُصِرُّ على الانتظار وعدم استعمال العنف خوفاً من الانقسامات الداخلية منذ البداية، وأنَّ

وقد انتشر هؤلاء الطلائع في أواسط الشعب على نطاق واسع ولكن بحذر شديد، ليبصّرون المواطنين بأبعاد الهجرة اليهودية إلى البلاد وآثارها في المستقبل، ويحذّرونهم من بيع الأراضي، كما عمل الشيخ وأخوانه على نشر روح المحبة والتآلف بين المواطنين، فازدادت أواصر الألفة والمحبة بين المواطنين، وبدأت روابط الوحدة الوطنية تقوى وتشتد، بعد أن كان الأتراك قد مزقوها شر تمزيق بما أثاروه من حزازات وعداوات عائلية وعشائرية وقبلية، وكذلك فعل الإنجليز العمل نفسه[٢١].

وقد حدد الشيخ عز الدين القسّام ثلاثة أهداف للجهاد والثورة المسلحة هي:

أ ـ طرد الاستعمار البريطاني من فلسطين.

ب ـ منع إقامة دولة يهودية على أرض فلسطين.

جـ ـ إقامة دولة عربية مؤقتة تعمل على تحقيق الوحدة العربية.

ولما وجد البلاد العربية ممزقة يعبث فيها الاستعمار فساداً، وكل بلد منشغل بحاله وبالمشكلات التي خلقها الاستعمار له كان قوله قاطعاً: «إنَّ علينا عرب فلسطين الاعتماد على النفس وعلى إمكاناتنا الذاتية لا نتنظر حتى تهبط علينا النجدات من السماء ولا حتى تصلنا من وراء الحدود».

ولذا كانت القيادة الأولى للحركة التي شكلت عام ١٩٢٨م تضم خمسة أشخاص، من بينهم الشيخ عز الدين القسّام، أما الأربعة الآخرون منهم العبد قاسم (حيفا) محمود زعرورة (حيفا) محمد صالح وأبو إبراهيم الكبير وكلهم من أصحاب الحرف البسيطة مثل بائع جاز أو فلاح أو صاحب دكان[٢٢].

واستمر الشيخ عز الدين القسّام في تنظيمه السري حيث جنّد ٢٠٠ ونظم ٨٠٠ من الأنصار، ولكن لم يقم باتصالات فعلية بالفلاحين والعمال الذين كان عليهم الاعتماد من جنوب فلسطين ووسطها[٢٣] وذلك بسبب مراقبة الانجليز الشديدة له، بينما يذكر إبراهيم الشيخ خليل بأن عدد الذين جندتهم ثورة الشيخ القسّام قد تجاوز المئات وأنه باعتقاده يربو على الآلاف[٢٤].

ولم يكتف بهذا، بل وجد في جمعيّة الشبان المسلمين التي تألفت في حيفا عام ١٩٢٧ فرصة لتوسيع نطاق علاقاته بالناس فكان رئيسها وحامل لوائها ويقول رشيد الحاج إبراهيم «لعل القسّام هنا بدأ في ممارسة ما كانت نفسه تتوق إليه، وهو أن ينشىء عصبة بعد عصبة من أهل الإيمان بهدف الثورة يوماً ما»[٢٥]. كما انضم إلى الحركة الوطنية الفلسطينية علانية، فكان أحد ممثلي مدينة حيفا في الاجتماعات الوطنية الخاصة التي كانت تعقد في القدس، وتشير بعض المصادر العربية إلى أن الشيخ

المسجد، ويدعو من يتوسم فيه الخير والاستعداد للجهاد إلى زيارته في منزله، وتتكرر الزيارات حتى يقنعه بالعمل لإنقاذ فلسطين مما يهددها من أخطار ضمن مجموعات سرية صغيرة[١٦].

كما آثر الشيخ عز الدين السرية المطلقة لدعوته في فلسطين، حيث تلقن درساً من الحكم العسكري الفرنسي في سوريا، فكانت أعماله الخارجية من وعظ وتدريس ستاراً لعمله الأساسي وهو اختيار الصالحين من هؤلاء التلاميذ، والمستمعين وقد صرف القسّام السنوات الطوال[١٧] في اختيار العناصر وإعدادها تحت لواء التعاليم الدينية العامة، ومنها الدعوة إلى الجهاد، حيث تألفت خلايا الجهاد السرية في أول تكوّنها على نمط حلقات دار الأرقم بن أبي الأرقم أي من خمسة أشخاص على الأكثر من بينهم نقيب مسؤول عن القيادة والتوجيه، كما سرت روح الجهاد بين الشعب فتتابع تنظيم التشكيلات السرية[١٨].

وقد حدد الشيخ طبيعة الرجال الذين يريدهم، بأنهم على استعداد للتضحية بالمال والروح، إنه يريد الرجل المقدام الصبور على الأذى، الحافظ للسر المجدّ المثابر والمستقيم الخلق، الصادق في السر والعلن، ينكر ذاته ويحب خدمة الآخرين، قوي الحجة والمنطق قادراً على الإقناع، يطلب الموت فتوهب له الحياة.

من خلال هذه الصفات شرع الشيخ عز الدين القسّام يختار أعضاء حركته، وكان الشخص الذي يقع عليه الاختيار يخضع لتجربة ومراقبة تمتحن خلالها عزيمته وقدرته على حفظ السر وللعضوية شرطان: أولها أن يقتني العضو السلاح على حسابه، وأن يتبرع بشيء من ماله قدر المستطاع[١٩].

ويقول ابراهيم الشيخ خليل أحد أفراد العصبة القدامى بأن «المال للثورة كان له مصدران، مصدر الاشتراك الشهري وكان جيّداً، والمصدر الثاني كان التبرع الطوعي، والتبرع كان يجري على أسس العقيدة الإسلامية، ويقع تحت حكم عدة أيات قرآنية كريمة مثل قوله تعالى: «انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون» وقوله تعالى: «مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم».

«كان عدد كبير من أخوان القائد في وضع مالي حسن، حيث المزارع الكبير والتاجر والمقاول، وكانت أرباحهم وافية، وكان العديد منهم يتبرعون بكل ما يملكون بعد سد حاجتهم اليومية... «زد على ذلك أن بعض أخوان القائد كانوا على صلات حسنة جداً مع بعض الأثرياء من المواطنين وكانوا يحصلون منهم على بعض المال طواعية وعن طيبة خاطر»[٢٠].

الذين يؤمنون بأن الجهاد العملي والقتال الصادق هو خير منطق يجابه به الأعداء الذين يهاجمون أرضنا ومقدساتنا، وأنه لا كرامة لمسلم يرضخ للأعداء أو يعاملهم أو يصادقهم أو يطمئن إليهم، وما انتهى يوماً من الأيام من درسه إلا وختمه بقوله تعالى «ومن يتولهم منكم فإنه منهم»[٩].

كما بدأ يكافح الأميّة في صفوف الناس وذلك بإنشاء مدرسة ليلية وإعطاء دروس ليلية لهم[١٠]. بهذه الوسائل استطاع الشيخ الاتصال بمختلف فئات المواطنين في حيفا من شباب وشيوخ وعمّال وفلاّحين وطلاّب ونجّارين وحدّادين وغيرهم من أصحاب الحرف البسيطة، ولكن هذا يظل مقتصراً على مدينة حيفا ولا بد أن تتسع دائرة الاتصالات لتشمل القرى المجاورة فتقدم بطلب تعيين في وظيفة مأذون شرعي ليتسنى له الاتصال بالجميع[١١]، فلما عيّن مأذوناً شرعياً من قبل المحكمة الشرعية، أصبح بمقتضى هذه الوظيفة يحضر حفلات الأعراس مما أعطاه فرصة لدراسة نفسيات الناس[١٢] وللتجول بين الفلاحين والاتصال بهم وانتقاء العناصر الوطنية للحركة مستخدماً المأذونية ستاراً لعمله فأصبح فلاّحوا المنطقة الشمالية يُكنّون له أبلغ الاحترام والمودة بفضل زياراته المتكررة لهم.

نلاحظ من ذلك أن الشيخ عز الدين كان يركّز حركته على الفلاحين والعمال وذلك لأنهم أكثر الفئات إنقياداً واستعداداً للتضحية، ولم يتصل بالأفندية (الطبقة الغنية) لأنهم منشغلون بعقاراتهم وأملاكهم وثرواتهم ووظائفهم وبجاههم، كما أن هذه الطبقة حريصة ـ غالباً ـ على التقرب من رجال السلطة وليست حريصة على التضحية فكانوا في وادٍ والقضية في وادٍ آخر.

كيفية اختيار أنصاره:

لا شك أن الشيخ بما كسبه من خبره في نضاله ضد الاستعمار الفرنسي في سوريا، قد أدرك بفكره الثاقب أن الاستعمار وحدة لا تتجزأ مهما تنوعت أشكاله وأساليبه، كما أدرك أن الأخطاء التي وقعت في حركة النضال ضد الفرنسيين في سوريا يجب أن لا تتكرر في فلسطين[١٣] وكان يرى أنه لا بد من الأعداد النفسي للثورة ضد الاستعمار وقد بدأ هذه المرحلة منذ أن قدم إلى حيفا، وساعده في هذه المرحلة عدد من العاملين المؤمنين، ومن هؤلاء الشيخ كامل القصاب وهاني أبو مصلح[١٤] وعمد إلى اختيار الكيفية دون الكمية، ويقول أبو إبراهيم الكبير أحد رفاق القسّام: إنه كان للشيخ «حلقات درس يعلم فيها المسائل الدينية، ولكنه كان أكثر المشايخ تطرّقاً لضرورة الجهاد ولمنع الصهيونية من أن تحقق أحلامها في بناء وطن قومي على أرض فلسطين، كان يركز على الاستعمار البريطاني وعلى الصهيونيـة[١٥]، وقد ذكر كثير من أخوان الشيخ القسام أنه كان يراقب المصلّين وهو يخطب فوق منبر

ولم يقصر الفتى اهتمامه على دروس الشيخ محمد عبده وحلقات الأزهر بل رافق هذا الاهتمام دراسة حركات التحرر، حيث كان الأزهر في أوائل هذا القرن منارة كبرى لنشر الإسلام وجامعة للفكر الوطني، ولما عاد إلى بلاده عمل مدرِّساً في جامع السلطان ابراهيم، وأخذ يسعى لتنوير عقول الناس وأفكارهم حتى كان اسم الشيخ عز الدين على كل شفة ولسان.

بداية جهاده:

وامتدَّت صلاته خلال الحرب العالمية الأولى برجال الحركة الوطنية الذين كانوا يسعون لرفع الظلم العثماني عن العرب حتى إذا انتهت هذه الحرب وجد القسَّام بلاده تخرج من قبضة الحكم العثماني لتصبح بين أنياب الإستعمار وهو الانتداب الفرنسي[٣].

أمام هذا الاحتلال الجديد بدأ المواطنون في المقاومة، فاشترك الشيخ عز الدين القسَّام في عصبة عمر البيطار[٤] وثورة الشيخ صالح العلي سنة ١٩٢٠م التي لم يحالفها النجاح[٥] فحاولت السلطة العسكرية الفرنسية شراءه بإكرامه وتوليته على القضاء فرفض ذلك وكان جزاؤه إن حكم عليه الديوان العرفي بالإعدام[٦] مما يدل على أن الاستعمار يعمل على استمالة الشرفاء إلى صفوفه بالترغيب فإن فشل فبالإرهاب.

جهاده في فلسطين:

اشتدَّت ملاحقة الفرنسيين للشيخ عز الدين، فأجرى اتصالات مع صديق قديم له من فلسطين هو الشيخ كامل القصاب تمكن بعدها من التوجه إلى فلسطين في ٥ شباط ١٩٢٢م ولجأ معه من رفاق الجهاد الشيخ محمد الحنفي من مصر والشيخ علي الحاج عبيد[٧] وذلك من أجل الإسهام في حركة الدفاع عن فلسطين نزل في قرية الياجور قرب مدينة حيفا، الميناء الفلسطيني الناشىء، فأحتفى به أهل حيفا احتفاء بالغاً لما عرفوا في الشيخ من شجاعة وصلابة وما رأوا منه من سماحة الخلق والتواضع.

وقد عمل الشيخ في بداية الأمر مدرِّساً في جامع النصر بحيفا، بينما اشتغل زميلاه في الزراعة ثم عمل خطيباً في جامع الاستقلال[٨] أكبر مساجد حيفا، ومكَّنه هذا من التعرف على عدد أكبر من المواطنين الذين يستمعون إلى دروسه وخطبه، حيث كان رجلاً عالماً مؤمناً صادقاً، فكان يلتقي بتلاميذه في مسجد حيفا تحت ستار الدروس الدينية، وما كان درسه موقوفاً على البحث عن فتوى الزواج والطلاق ولا عن إفتراضات الفقهاء في عصور التأخر، ولكن كان درسه من دروس أعلام المسلمين